أنا والضباب

قصة بقلم ابراهيم أبو ناب

(١) لو لم اكن عليما بحرص والدتي لما عجبت لتشجيعها لي باصلاح الحذاء . لا بل والاغرب من ذلك ان الحذاء لم يكن يحتاج الى اصلاح فلم يمض على انتعالي اياه اكثر من شهر . واعمار الاحذية في رجلي لاتقاس بالاشهر بل بالسنوات .

كنت اقطع ساعات فراغي البلهاء بقراءة احدى المجلات حينما دخلت الغرفة علي والدتي وراحت تبحث في الجحور والخزائن القديمة التي تملأ جوانب الغرفة . وعندما لم تجد ماتريد قطعت علي حبل انشغالي وسألتني عما اذا كان حذائي يحتاج الى اصلاح . والذي يعرف والدتي بشعرها الاغبر وتجاعيد وجهها التي رسمتها سنون من الحرص واقتصادها حتى في الكلام يستطيع ان يفهم استغرابي لتلك المفاجأة ، فحذائي كما قلت لم يمض على انتعالي اياه اكثر من شهر .

وخرجت الوالدة من الغرفة وسمعتها تقول بصوت فيه عطف واعتذار :

ـ مالك نصيب يا ابو سليم . بس تفضل ولو فنجان قهوة .

سمعت ضحكة تصدر عن ابي سليم هذا ثم سمعت صوته يتلاشى تدريجيا وهو يبتعد في ممرات القرية وطرقاتها وهو يصيح : مصلح كنادر !

امي تمنح مصلح الاحذية فنجانا من القهوة وكانت تبحث في البيت عن حذاء يمكن اصلاحه او عن شيء تهبه اياه . ان شيئا من الضباب يهبط في قلبي .

والتقيت بالرجل مصلح الاحذية عصر ذلك اليوم وهو عائد ادراجه. كان يحمل صندوق معداته الصغيرة وقد ناء بما يحوبه من ثمار وخبز وبيض . والتقت نظرتانا لحظة احسست انهما اشتبكتا فيها اشتباكا ثم عبر الرجل الطريق وتحت شاربه الضخم المعقوف ابتسامة لم احبها . وهبط الضباب على قلبي .

(٢) ان الاشياء التي تعكر ايامي تافهة . قد تكون ابتسامة أجهل دوافعها او لهجة سؤال لا اطيقه او تغيرا بسيطا فيما الفته ودرجت عليه . واحيانا يغلف قلبي ضباب يقف حاجزا بينه وبين العالم الذي يعيش فيه الملايين في حركة دائبة . هذه الملايين خلف الضباب هي التي تزعجني اذ كيف لا اجد لي سبلا او غاية كاحد هذه الملايين ؟

منذ تخرجت من المدرسة ونزلت الى المدينة ابحث عن عمل والمشكلة تتعقد . لقيت في مقابلاتي المتعددة مع المتنفذين ماجعلني ارى نفسي رقما تافها لا قيمة له . فكل واحد منهم يبدو كانه اله صغير جئت بابه ارجو العفو والمغفرة او ارجو شيئا من نعمائه مما جعلني اشعر انهم ليسوا امناء على مصالح بل ارباب تلك المصالح يصرفونها على هواهم . وكثيرا ما شككت في قرارة نفسي ان يكون هؤلاء قد بداوا حياتهم كما بداتها باحثين بل خيل الي انهم ولدوا في وظائفهم وسيسلمونها لاناس اخرين قد ولدوا لها . واقول الحق ان الوظائف على اي حال لم تكن مناي ولم اشعر في يوم من الايام ان الوظيفة شيء يستحق ان يراق له ماء الوجه . بل كنت اشعر انني في بحثي عن وظيفة كنت اؤدي واجبا لامي . وفي كل مرة اخفقت احسست بشعور بالارتياح لانني اديت واجب البحث دون ان يستقر على عنقي ذلك النير الذي كنت اراه في كل حركة وسكنه من حركات المرؤوسين لرؤسائهم .

ولكن المشكلة هي امي ... امي تريدني ان اكون من موظفي الحكومة وان البس الياقة البيضاء والبذلة الجديدة والحذاء اللامع . امي تريد ان تباهي بي جاراتها . امي تريدني بعد ذلك ان اتزوج من شابة مثل زوجة الاستاذ مصطفى المثقفة التي ينظر اليها نساء القرية وكانها من عالم اخر .

وعند التفكير في كل هذه الامور أرى انها لا باس بها . انها صورة انيقة لاتشوبها شائبة . ولكن انى لي ان احقق هذا الحلم الجميل بتلك السهولة التي تتصورها امي ؟ فانا لست من مادة الوظيفة واشعر انني في حاجة الى الكثير من مؤهلاتها غير العلمية . انني قروي طليق والافاق الواسعة في دمي . ولا استطيع ان اكون شخصا اخر غير نفسي. ثم اين هي تلك الفتاة الجميلة المثقفة التي سترضى بي على هذه الحال.

(٣) انني اتمنى ان تموت هذه الوالدة واؤنب نفسي على منيتي هذه لانني لا اكره والدتي ولا احقد عليها بل احبها حبا عميقا يصل الى خلايا وجودي . ثم اعود فاتمنى لو اموت انا فيفزعني الحزن العميق الذي سيخلفه موتي لهذه الوالدة .

للمرة الثانية سمعت الوالدة تنادي ابا سليم مصلح الاحذية وتصر عليه بالاستراحة في فناء البيت تحت شجرة التوت الكبيرة . واسرعت فعملت له القهوة وقدمت له الفطائر بالزيت . وبدا ينجلي لي السر . كنت مستلقيا هذه المرة على ظهري داخل الغرفة اجتر الوقت واحلم في فراغ . وكنت اسمع من داخل الغرفة صوت رشف ابي سليم للقهوة وضحكاته وثنائه على مهارة الوالدة في صنع الفطائر . وزاد غمي ولكنني اصغيت . وما هي الا دقائق تشعب فيها الحديث فمس امور الدنيا مسا تسمعه كل يوم من الاف الشفاه . ثم سمعت الوالدة تقول للرجل :

ـ شوف لنا هالبخت يا ابو سليم .

وتصورتها تقدم له بيدها فنجانها والرجل يبتسم ابتسامة لها نشيش ثم يمسح شاربه الضخم من اثار الزيت والفطائر . وما هي الا لحظات حتى ياتيني صوته مدغدغا للامال البالية . « لك شخص تحرصين عليه كل الحرص وتحبينه اكثر من عينيك وامامه طريق طويل تقف فيه بعض العقبات . ولكن هذه العقبات لن تلبث ان تزول بالصبر انها ستحتاج الى سبع ليال او سبعة شهور او سبع سنين .. ولكن العقبات ستزول بالصبر وسناتي الى عندك عند زوالها ونشرب القهوة وناكل الحلويات . قولي ان شاء الله . » وسمعت الوالدة تقول ان شاء الله .

(٤) كم يغيظني هذا الرجل . في كل بيت يشرب القهوة ويأكل الفطائر ويحمل الثمار والبيض . كل نساء القرية يتعلقن باهدابه ليقرأ لهن بختهن . هذه يقول لها انها ستحمل في يوم من الايام وتلك انها ستفرح بابنها ، حتى والدتي فقد استطاع ان يحس بما تريد ويؤملها بتحقيقه اذا هي صبرت .

وكانه كان يحس بغيظي منه فكلما التقت عيني بعينه في طرقات القرية كنت أشيح بوجهي عنه وهو يرمقني بعجب . وذات يوم رايته جالسا في ظل شجرة كبيرة على الطريق يمسح عرقه ويسند ظهره الى جدار . كان وحيدا يبدو عليه التعب والوحدة وشيء من الكآبة . ولم أجد لي بدا من طرح السلام عليه عند مروري به فرد تحيتي احسن رد . وشعرت لاول مرة باشفاق عليه واحسست بتعبه يخترق على قوقعتي وينفذ الى جميع حواسي . انه يكد ويشقى .. يذرع القرى كل يوم يحمل صندوقه على كتفه .. صوته لا يهدأ في طلب الرزق . انه يبحث مثلي عن عمل ... ولكنه يبحث في كل دقيقة من دقائق حياته . وفكرت .. قلت في نفسي لا بد انه سعيد . فهو لا يلتقي بآلهة صغيرة في بحثه ، انه يلتقي باناس مفلسين مساكين يتألمون ويأملون فلا يملك الا ان يعزيهم ويحثهم على الصبر ويشرب معهم القهوة ويأكل الفطائر ويجد في كرمهم وطيبتهم العزاء وربما السعادة ..

اما انا ...

وعندما ذكرت انا هبط الضباب وكنت لا ازال اسير وحيدا في الطريق ..

ابراهيم أبو ناب